ملامح العسكرية الإسلامية
فى صدر الإسلام

دكتورة
نادية حسنى صقر
كلية التربية فرع كفر الشيخ

مقدمة

ملامح العسكرية الإسلامية فى صدر الإسلام - كأحد مظاهر الحضارة الإسلامية - موضوع يعتمد بالضرورة اعتماداً كلياً على المصادر الإسلامية وهى العربية إذ أن العسكرية الإسلامية مستمدة أساساً من التشريع الإسلامى ، أى من الكتاب والسنه ، وهما المصدران الأساسيان للتشريع .

ولقد بذلنا أقصى الجهد لاستخراج ملامح العسكرية الإسلامية من مصادرها الأولى واستعنا فى ذلك بأهم كتب التفسير ، وأحكام القرآن ، علاوة على كتب السيرة والتاريخ الإسلامى والمصادر الإسلامية الأولى ، ولقد وجدنا كل ذلك متوفرا فى مكتبة المركز ومكتبة الجامعة .

ولقد اتضح لنا بعد الدراسة أن منهج الإسلام فى القتال جاء قمة فى السمو والرقى الإنسانى إذا قارناه بما يحدث فى القتال الآن من جرائم حرب على أيدى الدول المتحضرة فى البوسنة وفلسطين وغيرهما تحت سمع العالم المتحضر وبصره .

إننا إذا نظرنا بموضوعية إلى ذلك المنهج نجده يحمل القواعد الأساسية لأعظم استراتيجيات العالم الآن من الاستخبارات والإستعراض العسكرى والصمود ومختلف عوامل النصر ، وأهمية الإنسان المقاتل والأجهزه والعدد والاستعدادات القصوى ، وسن التجنيد والمعنويات ونفسية الجندى ورعاية أسر المقاتلين والجبهة الداخلية ، والخيانه العسكرية والفرق الإنتحارية أو الصاعقة إلى غير ذلك مما كان جديدا على العالم منذ أربعة عشر قرنا أو يزيد .

أرجو أن أكون قد وفقت فى توضيح الوجه الحقيقى للإسلام ، وإبراز سموه ومثاليته .

ملامح العسكرية الإسلامية

حققت العسكرية الإسلامية فى صدر الإسلام نجاحا عظيما إذ حققت أهدافها الإستراتيجية من حيث تأمين الدعوة ، والدفاع عن الدولة الإسلامية وتوفير الأمن لها والاستقرار حتى تؤدى رسالتها . كانت هناك غزوات ، وكانت هناك سرايا . قاد الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه ثمان وعشرين غزوة . واجه المسلمون أعداءهم جميعا المشركين واليهود ، الفرس والروم وانتصر المسلمون عليهم جميعا . واستمرت انتصاراتهم سواء فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم أو بعد لحاقه بالرفيق الأعلى ، فى عهد الخلفاء الراشدين .

ولقد كانت ولاتزال حركة الفتوحات الإسلامية والسرعة الفائقة التى تمت بها هذه الحركة ، والنجاح الذى حققته[١] ، كل ذلك كان من الموضوعات التى شغلت مؤرخى العالم واحتلت جزءا كبيرا من كتاباتهم فى القديم والحديث . فلم يكد ينصرم القرن الأول الهجرى حتى كان الإسلام قد امتد من المحيط الهندى إلى المحيط الأطلسى .

معنى ذلك أن العسكرية الإسلامية الناشئة بقيادة محمد صلى الله عليه وسلم قد حققت تفوقا كبيرا على أقوى قوتين فى العالم آنذاك ، العسكرية الفارسية والعسكرية البيزنطية بتاريخهما الحضارى الحافل . وصارت العسكرية الإسلامية من مظاهر الحضارة الإسلامية .

كيف نجحت العسكرية الإسلامية الناشئة فى تحقيق ذلك النجاح الباهر ؟ ماهو السر فى انتصاراتها المتتالية ؟ كيف حققت كل تلك الإنجازات الضخمة ؟

الواقع أن العسكرية الإسلامية تتميز بخصائص ومميزات وملامح هى السر فى انتصارات المسلمين المتتالية حين تمسكوا بها ، ولما تخلوا عنها وغابت عنهم ، غاب عنهم النصر . والحق أن مبادئ العسكرية الإسلامية إنما استخلصها النبى صلى الله عليه وسلم واستمدها من القرآن الكريم ، فإذا كانت الإستراتيجيات الشرقية والغربية فى العالم تقررها

---

١) راجع البلاذرى : فتوح البلدان . محمود شيت خطاب : قادة فتح الشام ومصر . ص ١٣٩ - ١٤٣.
قادة فتح العراق والجزيرة . ص ١١٩ - ١٣٥ .

وترسمها قيادات بشرية فهى إذن من صنع البشر فى حين أن الإستراتيجية الإسلامية نجدها قد جاءت علوية سماوية إلهية . وليست بشرية من صنع إنسان قد يخطئ وقد يصيب . الإستراتيجية الإسلامية إنما أخذها المسلمون من كتاب (**أحكمت آيته ثم فصلت من لدن حكيم خبير{١}**)[١] (**وانه لكتاب عزيز {٤١} لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد {٤٢}**)[٢] . وأهم ملامح العسكرية الإسلامية هى :

ا - الإنسان المقاتل وأهميته :

الإسلام يعلى قيمة الإنسان وينظر إليه نظرة التكريم والإحترام وكل ماوضع من أحكام إنما جاء ليصون كرامة الإنسان وحقوقه فى الحياة . فالعدل والرحمة والمساواة هى للجميع . عمل الإسلام على تربية الإنسان على الإنضباط الذاتى على أساس من الحرية والكرامة **قال تعالى : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملنهم فى البر والبحر ورزقنهم من الطيبت وفضلنهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا {٧٠})**[٣]

وقال تعالى : {إن أكرمكم عند الله أتقكم}[٤]

الإسلام يربى ضمير المسلم ويوقظه ويجعله المتحكم فى ذاته إذ يقول صلى الله عليه وسلم : "أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" تربية الوازع الدينى تتضح فى **قوله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى {٤٠} فإن الجنة هى المأوى(٤١))**[٥]

---

١) سورة هود آية ١. الصابونى : صفوة التفاسير.المجلد الثانى ص ٦. تفسير ابن كثير. جـ٢ ص ٤٣٥ .

٢) سورة فصلت آية ٤٢ . الصابونى : صفوة التفاسير.المجلد الثالث ص ١٢٥ .

٣) سورة الإسراء آية ٧٠ . الصابونى : المجلد الثانى ص ١٧٠ . سيد قطب : فى ظلال القرآن . المجلد الرابع ص ٢٢٣٦ .

٤) سورة الحجرات آية ١٣ . سيد قطب : فى ظلال القرآن . المجلد السادس ص ٣٣٣٥. الصابونى : السابق المجلد الثالث ص ٢٣٦ .

٥) سورة النازعات آية ٤٠ ، ٤١. الصابونى : صفوة التفاسير.المجلد الثالث ص ٥١٦ . تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٤٦٩ .

ويقول فى موضع آخر: (ولمن خاف مقام ربه جنتان)[١]

وقوله عز وجل: (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير)[٢]

هذة هى شخصية المقاتل المسلم . والإسلام حين يهتم بالإنسان أو المقاتل فهو يدرك أهمية المقاتل فى المعركة . وكل العسكريات العالمية الآن تدرك أهمية الإنسان فى الميدان فهو العنصر الحاسم فى بناء الكفاءة القتالية ومدى قدرتها وفعاليتها العسكرية . ومن المعروف أن العبرة ليست بالسلاح فقط إنما هى بالرجال الذين يحملون السلاح ويتحركون فى الميدان .

٢ - نفسية المقاتل وعقيدته القتالية :

المسلم يقاتل فقط للجهاد . لتكون كلمة الله هى العليا ، لأهداف غاية فى السمو والنبل والشرف **قال تعالى: (وجهدوا فى الله حق جهاده هو اجتبكم)**[٣]

والمقاتل فى المعركة إنما يجود بنفسه وبدمه وبروحه وتلك لايبذلها الإنسان إلا أن يكون لأثمن وأغلى منها . الخوف من الموت وحب البقاء قد تدفع المقاتل وتحركة . ولكن المسلم المؤمن الذى أسلم وجهه لله وملأ نفسه عقيدة التوحيد ، الذى يشهد أن لا إله إلا الله ، لا قولا بلسانه فقط ، إنما يعيشها ويتمثلها معنى حقيقيا ، كل ذرة فى كيانه تدركها وإذا أدرك الإنسان بعمق أن لا إله إلا الله ، لا يتعلق إلا بالله ولا يخشى غيره ولا يرجو سواه ، مما يعطى الإنسان قوة هائلة تجعله أكبر من أى موقف ، فتحرر شخصيته من كل خوف حتى الخوف من الموت لأنه يؤمن بعمق أن : **(كل نفس ذائقة الموت**[٤] **وقوله تعالى: (وما كان لنفس أن**

---

١) سورة الرحمن آية ٤٦ . تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٢٧٦ .
الصابونى : صفوة التفاسير.المجلد الثالث ص ٢٩٩.

٢) سورة الملك آية ١٢ . الصابونى : صفوة التفاسير.المجلد الثالث.ص ٤١٨ .
سيد قطب : فى ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٦ .

٣)سورة الحج آية ٧٨ . سيد قطب : فى ظلال القرآن.المجلد الرابع.ص ٢٤٣٧ .

٤) سورة آل عمران آية ١٨٥ . سيد قطب : السابق.المجلد الأول.ص ٥٣٤ .
الصابونى : صفوة التفاسير.المجلد الأول.ص ٢٤٩ .

تموت إلا بأذن الله كتبا مؤجلا)[١] **وقال تعالى : (ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون{٣٤})**[٢] **وقال تعالى : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة)**[٣]

وهكذا علمهم القرآن أن الحرص على الحياة لن يمد فى عمر الإنسان ، فيزداد قوة ولا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا ، لأنه مؤمن بقول الله عن الحياة والموت وعن الأجل المحدد وهكذا كان المسلمون فى فتوحهم ، ما عرفت نفوسهم الخوف مهما كانت المواقف . وهذه هى شخصية المقاتل التى يريدها الإسلام .

ثم إن المنهج الإسلامى فى التربية يرى فى الشهادة شرفا عظيما وكسبا كبيرا ودرجة رفيعة فكان المسلم المجاهد يخرج للجهاد وهو يتطلع إلى إحدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة . ومقاتلُ هذه نفسيته وهذه روحه وهذه شخصيته لا يمكن أن يُهزم أو يُغلب أبدا . كتله هائلة من الإيمان والعقيدة تتحرك وتدفعة يستبسل ويستمر يقاتل فإما النصر أو الشهادة .

منهج القتال فى التشريع الإسلامى

أوضع . القرآن الكريم العوامل التى تؤدى إلى النصر فى المعارك وهى أوامر محددة واضحة هناك منهج تطبيقى شرعة الله فى القتال ويجب على المجاهدين الإلتزام به وبشروطه التى أمر الله بها فى كتابه الكريم وأهم تلك الشروط والأوامر هى :

---

١) سورة آل عمران آية ١٤٥ . سيد قطب : فى ظلال القرآن.المجلد الأول.ص ٤٥٥ .
الصابونى : صفوة التفاسير المجلد الأول ص ٢٣٢ .

٢) سورة الأعراف آية ٣٤ . سيد قطب : السابق المجلد.الثالث.ص ١٢٧٦ . تفسير ابن كثير.جـ٢.ص ٢١١ .

٣) سورة النساء آية ٧٨ . الصابونى : صفوة التفاسير.المجلد الأول . ص ٢٩١ .
سيد قطب : فى ظلال القرآن.المجلد الثانى ص ٧٠٠ .

١ - وحدة الغاية والهدف عند المجاهدين :

أن تكون غاية المجاهدين واحدة واضحة إبتغاء وجه الله تعالى بالعمل على نشر دينه وإعلاء كلمته تمكينا لمنهجه الذى ارتضاه ودليل هذا الشرط **قوله تعالى (انفروا خفافا وثقالا وجهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون {٤١})**[١]

وقوله تعالى : (وقتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما تعملون بصير{٣٩})[٢]

وفى الآيتين الكريمتين الغاية واحدة واضحة ، فى الآية الأولى أن يكون الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله وحده . وفى الآية الثانية نفس الغاية ألا تكون فتنة فى الأرض للمؤمنين، بحيث يصير الدين كله لله تعالى **قال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)**[٣]

والغاية هنا واضحة محددة هى إرهاب أعداء الله .

٢ - تماسك الجبهة الداخلية ووحدة الصف واجتماع الكلمة :

أمر الله تعالى المقاتلين أن يوحدوا صفهم بمعنى أن يكونوا يدا واحدة وفكرا واحدا خلف قيادتهم ينفذون أوامرها وتعليماتها . فالاتحاد قوة والتفرق ضعف . أن يكون هناك تكتيك عسكرى واحد واستراتيجية واحدة ينفذها الجميع أو خطة واحده لكل فيها دوره . ودليل هذا الشرط **قوله تعالى : (إن الله يحب الذين يقتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص{٤})**[٤]

أى تكون جبهة المجاهدين متآلفة متفقة متحدة كبناء قد رُص بعضه ببعض ألصق

---

١) سورة التوبة آية ٤١. الصابونى : صفوة التفاسير المجلد الأول ص ٥٣٦ .

٢) سورة الأنفال آية ٣٩ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد الأول ص ٥٠٤ .
الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٣٧ .

٣) سورة الأنفال آية ٦٠ . سيد قطب : فى ظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٥٣٦ .

٤) سورة الصف آية ٤ . الصابونى: صفوة التفاسير المجلد الثالث ص ٣٧١ .

وأحكم حتى صار شيئا واحدا.

أما انقسام جبهة المقاتلين أو عدم التقائهم على هدف واحد فذلك مما يؤدى إلى الهزيمة . وعلى القائد أن يتفقد جيشه ويستعرضه ليخرج منه من كان فيه تخذيل للمجاهدين وإجارف للمسلمين ، فقد رد الرسول صلى الله عليه وسلم عبدالله بن أبى بن سلول فى بعض غزواته لتخذيله المسلمين[١]

٣ - اليقين بأن النصر بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء ، مرده إلى الله لا إلى القوة والعدد :

فبعد أن يبذل المجاهدون ما يمكنهم من جهد . وبعد الأخذ بالوسيلة والأسباب يعتمدون على الله فى تحقيق النصر ولا يأخذهم الغرور بالنفس إنما يوقنون أن النصر دائما بتوفيق من الله تعالى وتأييد منه . بتلك الروح حارب المسلمون فى بدر من هم أكثر منهم عددا وعُدة وأحرزوا عليهم نصرا مؤزرا . وبالعكس فى موقعة حنين كان المسلمون كثرة عددية ورغم ذلك لم يحالفهم ذلك النصر المؤزر .ودليل هذا الشرط قوله تعالى : (وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم{١٠}) [٢]

وقوله تعالى : (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم لم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين {٢٥}) [٣]

لا يغتر الجيش بقوته ويستهين بالعدو . ثم لايخشى العدو فتنخفض معنويات المجاهدين مما يؤدى إلى الهزيمة . إنما يدركون أن النصر بيد الله يؤيد به أصحاب الحقوق .

قال تعالى : (يأيها الذين ءامنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم {٧}) [٤]

وعد صادق مؤكد بنصرة الله لمن يجاهد فى سبيله . قال تعالى : (ولينصرن الله من ينصره) [٥]

---

١) الماوردى: الأحكام السلطانية ص ٣٧ .

٢) سورة الأنفال آية ١٠ . سيد قطب : فى ظلال القرآن.المجلد الثالث ص ١٤٧٠ .

٣) سورة التوبة آية ٢٥ . سيد قطب : فى ظلال القرآن.المجلد الثالث ص ١٥٨٥ .

٤) سورة محمد آية ٧ . سيد قطب : فى ظلال القرآن.المجلد السادس ص ٣٢٧٧ .

وفى موضع آخر يقول تعالى : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)[١]

تلك الآيات تؤكد عون الله ووعده بالنصر لمن قاتل فى سبيل الله . فالمؤمن يثق يقينا بأن النصر بيد الله وحده يؤيد به من يشاء . فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها ، ولكنه لا يجعل الأسباب هى التى تحدث النتائج بالضرورة فيتكل عليها وحدها . إن الذى ينشئ النتائج هو الذى ينشئ الأسباب هو الله تعالى ولا علاقة بين السبب والنتيجة فى وجدان المؤمن وشعوره . المؤمن يتخذ الأسباب عبادة بالطاعة ، وتحقيق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله وحده ، وبذلك يتحرر شعور المؤمن المجاهد من التعبد للأسباب والتعلق بها ، وفى الوقت نفسه هو مستوف لها بكل طاقته [٢] . وأكد ابن كثير هذا المعنى فى تفسيره **لقوله تعالى : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله)**[٣]

فى غزوة مؤتة عام ٨ هـ كان عدد المسلمين ثلاثة آلاف بينما كان الروم مائة ألف[٤] بقيادة هرقل عدا مائة ألف من المستعربة . وقف عبد الله بن رواحة قائد المسلمين قائلا للجند والله ما نقاتل الناس بعدد ولاقوة ولاكثرة ولانقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فإما النصر أو الشهادة[٥] .

ومما يؤكد ذلك ما قاله حاكم رومانى ، حين أرسل إليه الامبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد المسلمين ، فرد عليه الحاكم المسيحى قائلا : " إنهم أقل منا عددا ولكن عربيا واحدا يعادل مائه من رجالنا . ذلك أنهم لا يطمعون فى شئ من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط ، هذا فى الوقت الذى يرغبون فى الاستشهاد لأنه أفضل طريق

---

١) سورة الروم آية ٤٧ . سيد قطب : فى ظلال القرآن.المجلد الخامس ص ٢٧٦٩ .
الصابونى : صفوة التفاسير.المجلد الثانى ص ٤٨٢ .

٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن.المجلد الثالث ص ١٤٧٦ . ابن كثير : تفسير القرآن جـ١ ص ٣٠٢ .

٣) سورة البقرة آية ٢٤٩ . الصابونى : صفوة التفاسير.المجلد الأول ص ١٥٨.

٤) ابن هشام : السيرة جـ٣ ص ٤٢٩ . ابن الأثير : أسد الغابة المجلد ٣ ص ١٥٨ .

٥) ابن هشام : السيرة جـ٣ ص ٤٣٠ .

يوصلهم إلى الجنة ، فى حين نتعلق نحن بأهداب الحياة ونخشى الموت ياسيدى الامبراطور"[١]

٤ - الثبات والصبر وعدم الفرار أثناء القتال مع ذكر الله[٢]

الفارق بين المنتصر والمنهزم دائما هو مدى الصمود والقدرة عليه والإستمرار فيه . وذكر الله تعالى يعطى المجاهدين قدرة على العمل ودليل ذلك **قوله تعالى : (يأيها الذين ءامنو إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)**[٣]

أمر صريح بوجوب الثبات عند لقاء العدو ، مع ذكر الله فالثبات أول طريق النصر . وأثبت الفريقين أغلبهما . وذكر الله عند لقاء العدو إنما هو اتصال بالقوة الغالبة .

وقوله تعالى : (يأيها الذين ءامنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار {١٥} ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير {١٦}) [٤]

توضح الآية الكريمة شدة فى التحذير وتغليظ فى العقوبة ، وتهديد بغضب من الله ومأوى فى النار لمن لايثبت أثناء القتال أو يفر من المعركة . وقد اعُتبر التولى يوم الزحف من السبع الموبقات ، كما روى البخارى ومسلم فى الصحيحين[٥]

قال الإمام الشافعى « إنما يوجب الله سخطه على من ترك فرضا ، وفرض الله عز

---

١)سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى جـ١ ص ١٢٠ .

٢) محمد رواس قلعة جى : موسوعة فقه عثمان ص ١٣١ .

٣) سورة الأنفال آية ٤٥ . الصابونى : صفوة التفاسير.المجلد الأول ص ٥٠٨ .

٤) سورة الأنفال آية ١٥ - ١٦ . الصابونى: صفوة التفاسير.المجلد الأول ٤٩٧ .
ابن العربى : أحكام القرآن . المجلد الثانى ص ٨٤٣ وما بعدها .

٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجتنبوا السبع الموبقات ، فقيل ما هن يارسول الله؟ قال: الشرك بالله . السحر . قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق . أكل الربا . أكل مال اليتيم . قذف المحصنات الغافلات المؤمنات . والفرار يوم الزحف»

وجل فى الجهاد إنما هو على أن يجاهد المسلمون ضعفهم من العدو»[١] وعلى ذلك يمكننا القول أن الحكم فى التشريع الإسلامى العسكرى هو أنه لايجوز للجيش المسلم أن يفر من العدو أثناء المعركة إذا كان عدد المسلمين نصف[٢] عدد جيش الأعداء ، أى أنه إذا كانت النسبة بين الجيش المسلمين وجيش أعدائهم واحد إلى اثنين فلا يجوز الفرار من المعركة ، أو تولية الأدبار ، **قال تعالى : (يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صبرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون)**[٣]

ثم قال تعالى : (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم آلف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصبرين [٦٦])[٤]

وعلى ذلك حرام على كل مسلم أن ينهزم عن مثليه الا لإحدى حالتين[٥]. إما أن يتحرف لقتال فيولى لاستراحة أو لمكيدة ثم يعود لقتالهم وإما يتحيز إلى فئة أخرى يجتمع معها على قتالهم لقول الله تعالى : **(ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله)** .

٥ - الاستبسال وشدة البأس فى القتال :

إن الاستبسال وشدة البأس فى القتال تثير الرعب فى قلوب الأعداء مما يهبط بمعنوياتهم وتلك أولى خطوات الهزيمة وبواعثها وتؤدى بعد ذلك إلى انهيار مقاومة الأعداء فيكون التسليم . ودليل هذا الشرط قول الله تعالى : **(فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون [٥٧])**[٦]

إنه لتعبير عجيب ، يرسم صورة للأخذ المفزع ، والهول المرعب الذى يكفى السماع

---

١) الأم :جـ ٤ ص ٩١ .
٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٤٤ .
٣) سورة الأنفال آية ٦٥ . الصابونى : صفوة التفاسير.المجلد الأول ص ٥١٤ .
٤) سورة الأنفال آية ٦٦ . الصابونى : صفوت التفاسير.المجلد الأول ص ٥١٤ .
٥) الماوردى : المصدر السابق ص ٤٥ .
٦) سورة الأنفال آية ٥٧ . الصابونى صفوة التفاسير.المجلد الأول ص ٥١٠ .

به للهرب والشرود فما بال من يحل به هذا العذاب الرهيب ؟ إن هذا الدين لابد له من هيبة ، لابد له من قوة ، لابد له من سطوة تبعث الرعب الذى يزلزل أعداء تلك العقيدة فلا يقف فى وجه المد الإسلامى من يعوقه[١]. فالقرآن يحث المجاهد على شدة القتال وشدة البأس بقوة لا ترهب الأعداء وحدهم إنما ترهب من يسمع بهم من ورائهم من أمثالهم . فلا يجرؤ على الوقوف فى وجه الإسلام أحد . أى قدرة المقاتل المسلم على النفاذ إلى قلب العدو وأقتحام أدق معاقله وحصونه وإبادتها والسيطرة الكاملة على الموقف بإقتدار . **يقول الله تعالى : (فشرد بهم من خلفهم)**[٢]

هو أمر ملزم بإيقاع البأس الشديد في العدو المقاتل . حتى يقع الرعب والفزع فى قلوب من خلفهم ذعرا أن يقع بهم مثل هذا البلاء العظيم . **وقال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)**[٣] . فعلى المجاهدين إرهاب الأعداء وهذه هى الفرق الإنتحارية أو الصاعقة بلغة عصرنا الآن . مع ملاحظة أن هذا لمن يعتدى علينا ويبدأ بالعدوان على الدولة الإسلامية .

٦ - عدم التنازع وطاعة القائد[٤] :

إن الجيش الذى يطيع طاعة عمياء وينفذ تعليمات القيادة يهيئ لنفسه أسباب النصر . ولم ينتصر جيش في التاريخ تنازع ودب بين صفوفه اختلاف وجهات النظر . إن التنازع فى الأمر واختلاف وجهات النظر من شأنه تبديد الطاقات فى اتجاهات مختلفة ويعرقل تحقيق النصر ويؤدى إلى الفشل . ودليل هذا الشرط **قوله تعالى : (وأطيعوا الله ورسوله ولاتنزعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**[٥] **واصبروا إن الله مع الصبرين**[٦].

---

١) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ٣ ص ١٥٤٢ .

٢) سورة الأنفال آية ٥٧ . الصابونى :صفوة التفاسير.المجلد الأول ص ٥١٠ .

٣) سورة الأنفال آية ٦٠ . الصابونى: صفوة التفاسير.المجلد الأول ص ٥١١ .

٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٣٧ . صحيح البخارى جـ ٦ ص ١٦٣ .

٥)"تذهب ريحكم" تذهب قوتكم وبأسكم . الصابونى : صفوة التفاسير.المجلد ١ ص ٥٠٨ .

٦) سورة الأنفال آية ٤٦ . الصابونى: صفوة التفاسير.المجلد الأول ص ٥٠٨ .

أما طاعة الله ورسوله فمن شأنها أن يدخل المجاهدون المعركة مستسلمين لله فتبطل أسباب النزاع . هذا التعليم والأمر بطاعة الله ورسوله عند المعركة إنما هو من ضرورات الضبط التى لابد منها لتحقيق النصر ، إنها طاعة القيادة العليا التى تنبثق منها طاعة الأمير الذى يقودها وهى طاعة قلبية عميقة تختلف عن الطاعة التنظيمية فى الجيوش التى لاتقاتل في سبيل الله . فالمجاهدون فى سبيل الله يستمدون ولائهم للقيادة من ولائهم لله تعالى أولا .

ثم يتبع ذلك أمر واضح صريح بعدم التنازع لأنه يؤدى إلى الفشل . **قال تعالى :** مشيرا إلى ما حدث في غزوة أحد[١] **(ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنزعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أريكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين {١٥٢}**[٢]

هذه الآية الشريفة تؤكد على ضرورة الطاعة وعدم التنازع موضحة ما يترتب على هذا التنازع من فشل وهزيمة .

كان النصر الساحق للمسلمين فى أوائل معركة أحد ، واستمر القتل فى المشركين حتى ولوا الأدبار تاركين من خلفهم الغنائم . وحين ضعفت نفوس الرماة أمام إغراء الغنائم وتنازعوا فيما بينهم فريق يريد الغنائم ، وفريق يرى الطاعة المطلقة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قائد المعركة ، وانتهى الأمر إلى العصيان بعد ما رأوا بأعينهم طلائع النصر الذى يحبونه ترتب على هذا التنازع فى الأمر وعلى عدم الطاعة أن انقلب نصر المسلمين إلى هزيمة لما ضعفوا وتنازعوا وعصوا ، صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين وصرف المقاتلين عن الميدان فلاذوا بالفرار[٣].

وقال تعالى : (يأيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)[٤]

---

١) الواحدى : أسباب النزول ص ٧٢ .

٢) سورة آل عمران آية ١٥٢ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد الأول ص ٢٣٦ وما بعدها .

٣) ابن حجر : فتح البارى المجلد ٦ ص ١٦٢ . سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ١ ص ٤٩٤ .

٤) سورة النساء آية ٥٩ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد الأول ص ٢٨٥ وما بعدها .

وعن ابن عباس أن المقصود بأولى الأمر هنا «الأمراء» ومنهم أمير الجيش[١]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصا الله ، ومن عصى أميرى فقد عصانى» . وذكر الماوردى أنه يلزم الجند طاعة أميرهم ، وأن يفوضوا الأمر إليه ويكلوه إلى تدبيره حتى لاتختلف آراؤهم فتتلف كلمتهم ويفترق جمعهم[٢] .

٧ - إقامة العرض العسكرى لتنقية صفوف المقاتلين :

القائد المسلم عليه استعراض قواته للتعرف على حالة الجيش وقدرته القتالية ، يخرج من بينها من يكون عائقا لها أو مضعفا أو مخذلا وفى ذلك يقول الماوردى :«أن يتصفح الجيش ومن فيه ليخرج منهم من كان فيه تخذيل للمجاهدين وإرجاف للمسلمين أو عينا عليهم للمشركين ، فقد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن أبى بن سلول فى بعض غزواته لتخذيله المسلمين[٣]».

ومن ناحية أخرى فقد أخرج النبى من الجيش شبابا شعر صلى الله عليه وسلم أنهم لن يجيدوا القتال ولن يتحملوا ضراوته لصغر سنهم . ومن ذلك وجب على القائد المسلم استعراض جيشه للتأكد أن كل فرد فيه قادر على ذلك العمل الذى يناط به[٤].

فقد أجاز الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الغلمان . وآخر آخرين حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم وعلى ذلك فالرسول كان يتخير المقاتل .

كما أنه صلى الله عليه وسلم رد بعض المتطوعين لعدم اكتمال الجو المناسب لاشتراكهم فى القتال رغم قدرتهم عليه لظروفهم الأسرية . وذلك لاحتياج آبائهم وأهلهم لوجودهم بجانبهم ، أمر أحدهم أن يلزم أمه [٥] كما أمر آخر أن يذهب مع زوجته للحج قبل أن

---

١) الماوردى: الأحكام السلطانية ص ٤٨ . إبن كثير التفسير جـ١ ص ٥١٦ .

٢) المصدرين السابقين .

٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٣٧ .

٤) الكتانى : التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٢٣١ .

٥) المصدر السابق ص ٢٢١ .

يجاهد[١]، هكذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يكون خروج الرجال خالصا لوجه الله تماما قادرين عليه لايشغلهم عنه شئ ومن الجدير بالذكر أنه لايجوز الاستعانة بمن كان مشركا لقوله صلى الله عليه وسلم :« إنا لانستعين بالمشركين»[٢].

تلك هى التعاليم والأوامر التى وجهها القرآن الكريم يلتزم بها المجاهدون بعد إعداد القوة الكافية ، فإذا التزموا بتلك الشروط أثناء القتال وكانت غاياتهم وأهدافهم واضحة يمكنهم تحقيق النصر على أعدائهم ، ولقد أثبتت الغزوات ومن بعدها معارك الفتح الإسلامى مدى صدق هذه التعاليم حيث أثمر الجهاد الصادق فتحا مبينا وانتشارا للإسلام . وما من جيش اتبع تلك التعاليم والتزم بتلك الأوامر إلا حقق النصر ، ذلك أن قوة المجاهدين فى سبيل الله تزداد بقدر مافى قلوبهم من إيمان وعقيدة تدفع للصبر حتى يصير الفرد الواحد منهم كفؤا لاثنين من أعدائه على الأقل ، وكفؤا لعشرة من العدو على الأكثر كما ذكر القرآن : قال تعالى : **(إن يكن منكم عشرون صبرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون {٦٥} الئن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصبرين{٦٦})**[٣].

---

١)ابن حجر : فتح البارى مجلد ٦ ص ١٤٠ .

٢)صحيح مسلم ، المجلد السادس ص ١٩٨ وما بعدها . باب الجهاد. الشوكانى : نيل الأوطار جـ ٤ ص ٣٥. ابن القيم : أحكام أهل الذمة جـ١ ص ٢٠٨ .

٣) سورة الأنفال آية ٦٥ - ٦٦ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد الأول ص ٥١٤ .

بعض أوامر محمد ﷺ

القائد الأعلى للجيوش الإسلامية لقواده

هناك محظورات لايبيحها الإسلام أثناء الحرب وقد وضحها النبى صلى الله عليه وسلم وكلها تؤكد ميل الإسلام إلى السلم نتناولها فيما يلى وكلها مستمدة من الكتاب والسنة **قال تعالى : (ولايجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديدالعقاب(٢))**[١]

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر ولاتغلوا[٢] ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا[٣]، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم ، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، فإن أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذلك ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك . (وكان النبى صلى الله عليه وسلم ينهى عن قتل الأولاد والتمثيل بالمقتولين) أى اجعل عهدك وعهد أصحابك حتى تكونوا مسئولين عن عهدكم .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى كان يقول لأمير السرية : إذا نزلت بساحتهم فادعهم إلى الإسلام وأخبرهم ما يجب عليهم ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحد خير لك من حمر النعم[٤]

كما قال صلى الله عليه وسلم كلما بعث بعثا أو سرية: «تألفوا الناس وتأنوا بهم ولاتغيروا

---

١)سورة المائدة آيه ٢ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد الأول ص ٣٢٦ .

٢) الغلول هو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها.

٣) ابى عبيد القاسم بن سلام : الأموال ص ٣٢ - ٣٣. السيوطى : تنوير الحوالك جـ٢ ص ٧ .

٤)ابن حجر العسقلانى : فتح البارى جـ ٦ ص ١٤٤ .

عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل بيت إلا أن تأتونى بهم مسلمين أحب إلى من أن تأتونى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم»[١]. هذا الحديث يوضح وجهة النظر الإسلامية فى الحرب ، فرسول الله صلى الله علية وسلم يؤثر اعتناق القوم للإسلام ، ويوصى بدعوتهم إلى الله والتأنى معهم قبل إعلان الحرب عليهم .

وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء فى الحرب ونهى عن قتل الصبيان[٢] وقال هما لمن غلب . وقد أجاز بعض الفقهاء قتل المرأة إذا قاتلت[٣] . أى أنه لايجوز قتل النساء إلا أن يكن محاربات[٤] . ويقول ابن حزم : ولايحل قتل النساء الكفار ولا قتل من لم يبلغ منهم إلا أن يقاتل أحد منهم فلا يكون للمسلم منجى منه إلا بقتله . فإذا كانت الحرب ضرورة وأمر لابد منه فيجب على المحارب المسلم ألا يسفك دما لاضرورة لسفكه ولايتلف مالا دون مبرر ، ويحرم تحريما قاطعا إحراق الأعداء أو إغراقهم أو التمثيل بجثثهم كما يحرم قتل الوالدين إذا كانا غير مسلمين ومقاتلين فى جيوش الأعداء .

وقد اتفق الفقهاء على أن المدنيين الذين لايقاتلون يحرم قتلهم أو التعرض لهم بأى نوع من الأذى كالنساء والأطفال والرهبان والشيوخ كبار السن ، والمرضى[٥]. وجدت امرأة مقتولة فى بعض غزوات النبى صلى الله عليه وسلم فأنكر قتل النساء ، وكان على المقدمة خالد بن الوليد فأرسل له فقال[٦] «قل لخالد لايقتلن امرأة ولا عسيفا[٧]. وفى ذلك يقول الماوردى[٨]

---

١) صبحى الصالح : النظم الإسلامية ص ٥١٤. نقلا عن شرح السير الكبير .

٢) ابن حجر : فتح البارى جـ ٣ ص ١٤٨ وما بعدها . صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١١ ص ٤٨ .

٣) المصدر السابق .

٤) السيوطى : تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك جـ٢ ص٥ .

رءوف شلبى : الدعوة الإسلامية فى عهدها المدنى ص ٤٤١ .

٥) الجصاص : أحكام القرآن جـ ١ ص ٢٥٧. الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٤ .

النواوى : العلاقات الدولية ص ٨٨ .

٦) صبحى الصالح : النظم الإسلامية . ص ٥١٤ .

٧) العسيف الأجير .

٨) الأحكام السلطانية ص ٤١ .

«لايجوز قتل النساء والوالدان فى حرب ولا فى غيرها ما لم يقاتلوا لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم . ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل العسفاء والوصفاء . والعسفاء : المستخدمون ، والوصفاء : المماليك فإن قاتل النساء والوالدان قوتلوا وقتلوا مقبلين ولا يقتلوا مدبرين » .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : انهوا جيوشكم عن الفساد فإنه ما فسد جيش قط إلا قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وانهوا جيوشكم عن الغلول فإنه ما غل جيش قط إلا سلط الله عليهم الرجلة ، وانهوا جيوشكم عن الزنا فإنه ما زنا جيش قط إلا سلط الله عليهم الموتان[١]

وكان صلى الله عليه وسلم لا يُغير على قوم بليل ولا يغير عليهم إلا بعد الصبح[٢] وكان إذا طرق قوما فإن سمع أذانا أمسك . ونهى النبى عن التمثيل بالموتى[٣] .

ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الغدر . فالغدر[٤] . مرفوض فى السلام ومكروه كذلك فى الحرب فهو بغيض كل البغض للمقاتل المسلم ، لأنه يقاتل فى الله لغرض من أسمى الأغراض . المقاتل المسلم وفىٌ لدينه ولربه ولايمكن أن يكون غادرا **قال تعالى : (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين {٥٨})**[٥] **وقال تعالى : (وأوفوا بعهد الله إذا عهدتم)**[٦]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ، ألا ولا غادرا أعظم غدرا من أمير العامة » هكذا ينهى صلى الله عليه وسلم عن الغدر كما كان يحث على الوفاء[٧] فقد قال عليه السلام : « ألا أخبركم بخياركم؟ خياركم

---

١)المصدر السابق . ذكره مالك فى الموطأ مع تغيير فى اللفظ جـ ٢ ص ١٦ .

٢)أبو يوسف : الخراج ص ٣٧٢ .

٣) ابن هشام : السيرة جـ ٢ ص ٢٩٣.

٤) رؤوف شلبى : الدعوة الإسلامية فى عهدها المدنى ص ٤٤٧ .

٥) سورة الأنفال آية ٥٨ . سيد قطب : فى ظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٥٣٦ .

٦) سورة النحل أية ٩١ . الصابونى صفوة التفاسير المجلد الثانى ص ١٤١ .

٧)صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١١ ص ١٤٤ .

الموفون بعهودهم» . وقال « أنا أحق من وفى بعهده» . ومصادر التاريخ تؤكد هذه الحقيقة فقد التزم النبى والخلفاء بالوفاء بكل التزام ووفوا بعهدهم ، وكل مجاهد حق إنما يلتزم بالوفاء ويتجنب الخيانة .

وكذلك منع الإسلام قتل الرهبان فى صوامعهم فهم مشغولون بعبادة الله تعالى ولم يشتركوا فى الحرب . فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال : «اخرجوا باسم الله تعالى ، تقاتلون فى سبيل الله من كفر بالله ولا تغدروا ولاتغلوا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع »[١].

ففى هذا الحديث تحذير صريح واضح عن عدم قتل الرهبان والمتعبدين فى صوامعهم كما جاء فيه أيضا تحذير عن الغلول وأوضح تحريم ذلك ، والغلول هو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها . ذلك أن المقاتل فى سبيل الله أو المجاهد إنما هو فى سبيل الله ، خالصا لوجه الله وليس لأى غرض دنيوى . وعلى ذلك لاينظر لعرض دنيوى أو مادى . وقد أورد مسلم فى صحيحه فصلا خالصا فى « غلظ تحريم الغلول » وذلك فى كتاب الإمارة[٢] .

فى أول خلافه أبى بكر رضى الله عنه خرج ليشيع بعث أسامة الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أعده قبيل وفاته ، قال خليفة رسول الله وأكثر أصحابه قربا منه وفهما له ، قال أبو بكر الصديق فى توجيهه للجيش : « يا أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لاتخونوا ، ولا تغلوا ، ولاتغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا[٣] نخلا ولا تحرقوة ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»[٤].

تلك هى وصية أبى بكر الخليفة الأول لرسول الله صلى الله علية وسلم والمتفهم تماما

---

١) راجع نيل الأوطار جـ٢ ص ٢٦٠ وما بعدها . السيوطى : تنوير الحوالك شرح موطا مالك . جـ٢ ص ٧ .

٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ١١ ص ٢١٦ . وما بعدها .

٣) عقر النخل . قطع رأسها .

٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ٢٢٦ وما بعدها .

لتعاليم الإسلام وآراء النبى واتجاهاته . إن تلك الوصية إنما هى تعبير صادق ، واضح عن المحظورات التى يمنع الإسلام إتياتنها أثناء القتال فالحرب فى نظر الإسلام إصلاح وليست إتلافا وإفسادا .

إن تلك الوصايا التى اقتبسها الصديق رضى الله عنه من هدى الإسلام وتعاليمه ومبادئه يمكننا من بين ثناياها أن نعرف ما يحل فى القتال ومالا يحل . فإذا كان الباعث على القتال رد الاعتداء وتأمين الدعوة ومنع فتنة المؤمنين فنجد هذا الباعث يحكم الحرب ، فنجده يمنع بل يحرم قتل من لم يشترك فى الحرب بأى صورة من صور الاشتراك ، لذلك جعل الحرب قاصرة على الميدان لاتتعداه إلى غيره . كما نجده يمنع ويحرم الإعتداء على الحرية الدينية . فقد نهى أبو بكر عن قتل رجال الدين أو الرهبان أو التدخل فى حريتهم ، ذلك أن الجيش كان متجها إلى الشام حيث الأرض المقدسة لدى الأديان السماوية الثلاث الإسلام والنصرانية واليهودية وحيث تنتشر الصوامع والمعابد والكنائس حيث تفرغ للعبادة فيها رجال ، لذلك نهى جيشه عن التعرض لهؤلاء فهم لا يقاتلون ولا يفتنون الناس عن الإسلام إذا أغلقوا أبوابهم عليهم .

كما نلاحظ وصايا الصديق بمنع التخريب ، فتلك روح الإسلام ، نهى عن قطع الشجر بأنواعه والنخيل ، فالإسلام يبنى ولا يهدم يعمر ولا يخرب . لايسمح الإسلام بهدم أو تخريب إلا أن تكون ضرورة حربية قصوى كأن يستتر الأعداء بهذا البناء أو بهذا الشجر ويتخذوه كمينا وحصنا فإذا تبين واتضح أن قطع الشجر أو هدم البناء ضرورة حربية لازمة ولا مناص منها ، بأن كان فى بقاء ذلك الشجر أو ذلك الحصن إيذاء ونيل من الجيش الإسلامى ، هنا فقط يحل للجيش قطع ذلك الشجر أو هدم ذلك الحصن أما فيما عدا ذلك فلا يجوز تخريب أو تدمير . فليست الشعوب هى المقصودة بالحرب أنما هم الحكام الذين يعادون الدعوة أو يفتنون المسلمين . فالأصل[1] . هو عدم قطع الشجر أو هدم البناء لأن الغرض من الحرب دفع أذى الحاكم الظالم لا إيذاء الرعية .

---

١)الإمام محمد أبو زهرة : العلاقات الدولية فى الإسلام ص ١٠١.

وكان عمر بن الخطاب يقول عند عقد الألوية : بسم الله وبالله وعلى عون الله . أمضوا بتأييد الله والنصر لزوم الحق والصبر . فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما ولا أمرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات ، وفى شن الغارات ولا تغلوا عند الغنائم ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا وأبشروا بالرباح فى البيع الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم[١].

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح (أحد ولاته) : إنه بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشا أو سرية قال : اغزوا باسم الله وفى سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ، ولاتغلوا ولاتغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا . فإذا بعثت جيشا أو سرية فمرهم بذلك[٢].

معاملة الأسير فى الإسلام :

لاشك أن موقف الإسلام من الأسير هو موقف المعالج الحانى العطوف قال تعالى:

(ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا {٨} إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا)[٣]

ذكر الواحدى عن ابن عباس أن تلك الآية نزلت فى على بن أبى طالب[٤] أنه أجر نفسه يسقى نخلا نظير شئ من شعير ليلة حتى أصبح وتسلم الشعير فطحن ثلثه وأهل بيته وجعلوا منه طعاما فلما تم نضجه أتى إليهم مسكين فقدموا له هذا الطعام . ثم عملوا الثلث الثانى فما أن تم نضجه حتى أتاهم يتيم يسألهم فقدموا له طعامهم . ثم عمل الثلث الباقى

---

١)ابن قتيبة : عيون الأخبار المجلد الأول كتاب الحرب ص ١٠٧ وما بعدها .
ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ١ ص ١٢٨ وما بعدها .
٢)ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ١ ص ١٢٨ .
٣)سورة الإنسان آية ٨ - ٩ . سيد قطب : فى ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٧٧٦ .
٤)أسباب النزول ص ٢٥١ .

فلما تم نضجه أتى أسير من المشركين فأطعموه طعامهم وظلوا جياعا فى يومهم هذا .[١]

فالقرآن الكريم يشيد بموقف على أن عاون الأسير وقدم له الطعام ، فنظرة القرآن للمسكين ولليتيم هى نفس النظرة للأسير . ينظر القرآن للأسير نظرة عطف وإشفاق ورحمة . أما على بن أبى طالب رضى الله عنه فإن كان تصرف هكذا تجاه الأسير وأطعمه وقدم له يد العون إنما ليقينه من موقف الإسلام تجاه الأسير . وقد سبقت الآية فى معرض الحديث عن شخصية الفرد المسلم التى رباها الإسلام فى المرحلة المكية ، باظهار الرحمة الفياضة من قلوب المؤمنين التى ذابت رقه وعطفا وحنانا على الضعفاء المحتاجين ومنهم الأسير فكأنما الأسير فى نظر الإسلام يساوى اليتيم ويساوى المسكين . حق عليه العطف والشفقه لا الثأر أو الإنتقام .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « استوصوا بالأسارى خيرا »[٢] رواه الطبرانى وقال حديث حسن وهذه الوصية على قصرها تجمع كل معانى الخير ، بما فيها المعاملة الطيبة . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابة يوم بدر أن يكرموا الأسارى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغذاء[٣] . وكان النبى يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول « أحسن إليه » .

فى أحد بعوث المسلمين أسروا رجلا من بنى حنيفة هو ثمامه بن أثال سيد أهل اليمامة فربطوه بسارية من سوارى المسجد فخرج إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : ماذا عندك يا ثمامة ؟ فرد قائلا عندى يا محمد خيرا إن تقتل تقتل ذا دم ، وأن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فتركه صلى الله عليه وسلم يومين ثم سأله نفس السؤال فأجابه ثمامة نفس الإجابة ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يفك ويطلق سراحه . فماذا حدث ؟ انطلق ثمامة إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد وشهد بشهادة الإسلام ثم توجه للرسول قائلا : والله يا محمد ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، والآن أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى[٤] .

---

١) المصدر السابق ص ٢٥١ وما بعدها .

٢) ابن هشام : السيرة جـ ٢ ص ٢٨٨ .

٣) ابن هشام السيرة جـ٢ ص ٢٨٨ .

٤) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١١ ص ٨٧ وما بعدها

لقد كانت المعاملة الحسنة سببا لدخول هذا الأسير فى الإسلام وتلك غاية ما يحرص عليه المسلم وغاية ما قامت من أجله الحرب . ضمن الإسلام للأسير حياة بعيدة عن غضب القلب أو الرغبة فى الثأر والإنتقام . يمتنع الإسلام عن إلحاق الأذى بالأسير .

والقائد المسلم له الخيار فى الأسرى الذين هم بالضرورة غير مسلمين وإلا لما جاز حربهم ، له الخيار إما منا وإما فداء كما جاء فى القرآن الكريم « فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها »[١] فمن المن[٢] ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم بأهل مكة عند الفتح عام ٨ هـ فلم يتعرض صلى الله عليه وسلم لأحد من أهلها فى نفس أو مال . بل كان مناديه ينادى[٣] « ألا لا يجهزن على جريح ولا يتبعن مدبر ، ولا يقتلن أسير ، ومن أغلق بابه فهو آمن» وبذلك أمن الرسول صلى الله عليه وسلم الناس جميعا إلا أربعة نفر لكل منهم حديث وأمر خاص[٤] لهم تاريخ طويل جدا فى أذى الإسلام والمسلمين .

أتى الرسول صلى الله عليه وسلم الكعبة وقال : ما تقولون وما تظنون؟ فردوا عليه نقول ابن أخ حليم رحيم . فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم أقول لكم كما قال أخى يوسف « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »[٥]وهكذا أمن الجميع وقال لهم « أذهبوا فأنتم الطلقاء» .

أما الفداء[٦]فهذا ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم مع الأسرى يوم بدر[٧]فبعضهم دفع مبالغ من المال ، وبعضهم علم أبناء المسلمين الكتابة والخط ، كان على الواحد منهم أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة . أما عن المبالغ المدفوعة فى الفداء ، فقد بلغت أربعة

---

١) سورة محمد آية ٤. سيد قطب : فى ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٢٧٧ .

٢) المن : أى المن عليهم نتسريحهم .

٣) ابن سلام : الأموال ص ١٤١ .

٤) ابن سلام : الأموال ص ١٤٢ .

٥) ابن فهد : أتحاف الورى جـ١ ص ٥٠٥ .

٦) الفداء : إما نظير إطلاق سراح المسلمين أى تبادل أسرى . وإما بدفع مبلغ يتفق عليه .

٧) ابن هشام : السيرة جـ٢ ص ٢٩٢ وما بعدها .

آلاف درهم للرجل ، وأقلها درهم بحسب حالاتهم[١] . ومن الجدير بالذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم من على من لا مال له من أسرى بدر . نستنبط من تلك السنة الشريفة كراهية الإسلام قتل الأسير صبرا ويرفض الإساءة اليه ولو تتبعنا سنة النبى صلى الله عليه وسلم لا نجد فيها إذن قط بقتل أسير إلا فى حالة شاذة نادرة [٢] كان الأسير فيها شديد الخطورة والنكاية بالمسلمين فهو ليس قاعدة إنما هو استثناء يطبق على الشاذين الخطرين ، وهذا ما يعرف فى عصرنا الحالى باصطلاح «مجرمى الحرب» . كما لم يشجع الإسلام على استرقاق الأسرى . ولعل موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من سبى هوزان عقب موقعة حنين يؤكد ذلك[٣] بل إن سياسة الإسلام كانت التخلص من الرق والقضاء عليه تدريجيا فنظم لهم المكاتبة والتدبير[٤] وقد جاء تحرير الرقيق فى الإسلام وعتق الرقاب من أعظم الكفارات التى تمحو الذنوب . وذلك مثل القتل الخطأ ، والإفطار فى نهار رمضان ، أو الظهار ، أو اليمين التى يحلفها الإنسان حانثا فيها. قال تعالى فى سورة البلد: «فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة »[٥] كما شجع القرآن عتق الرقيق تقربا من الله وابتغاء مرضاته والواقع أن القاعدة العامة فى الأسر هى : إما منا بعد و إما فداء . وقد قدم المن على الفداء .

تلك هى شئون الحرب والسلم حسب النظرية الإسلامية والواقع أنها تبعد عن الناس شبح الحرب ما استطاع الإسلام إلى ذلك سبيلا ، وتدعوهم إلى التعاون والتراحم والتآخى . تلك النظم التى قامت على أساس السمو بالمشاعر الإنسانية ذلك أن إيمان الفرد لا يتم الا إذا أحب الإنسان لأخيه الإنسان ما يحب لنفسه .

---

١) المصدر السابق ص ٣٠٦ .

٢) ابن حجر : فتح البارى المجلد ٦ ص ١٦٥ .

٣) نادية حسنى : الطائف فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام ١٠٣ - ١٠٥ .

٤) صبحى الصالح : النظم الإسلامية ص ٤٧١ .

٥) سورة المائدة آية ٨٩ . ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٨٩ .
الصابونى : صفوة التفاسير المجلد الأول ص ٣٦٣ .

نهج الإسلام فى حروبه طريقا لم يكن معهودا من قبل فى أمة من الأمم ولا فى شريعة من الشرائع السابقة . الإسلام هذب أمور الحرب ورفع مستوى الإنسانية ، وبث الرحمة والعدل فى قلوب متبعيه وأوضح لهم نظاما للحروب لن تصل إليه تلك الأمم التى تدعى أنها وصلت إلى مستوى رفيع من الحضارة [١] .

أما من حيث التكتيك الحربى فقد استخدم محمد القائد صلى الله عليه وسلم كثيرا مما تحويه نظريات التكتيك الحربى الحديث . فيما يتعلق بنظرية الهجوم استخدم النبى الحصار[٢] ، وحركة الإلتفاف والاختراق ، والتلاحم ، والملاحقة[٣] .

وأما من حيث نظرية الدفاع فقد عرف صلى الله عليه وسلم حراسة المناطق الهامة ، والانسحاب[٤] والتباطؤ فى المواجهة ، واستخدم الخدعة فى غزوة الأحزاب فتمكن من تفويق شمل العدو المهاجم .

اعتمد الرسول القائد على السرية[٥] التامة مما مكنه من مفاجأة العدو والانتصار عليه دون إراقة دماء كثيرة . كما اعتمد على التخطيط المحكم والإعداد الدقيق فى غزواته .

كما حرص على تأمين قاعدة انطلاق جيوشه وهى المدينة المنورة فكان يحرص دائما على أن تكون فى حراسة قوية ، ويترك فيها من يخلفه[٦] إذا خرج للغزو . وتتضح عبقرية محمد القائد صلى الله عليه وسلم فى اهتمامه بتأمين مصادر التموين والتسليح فكان يصطحب معه كل ما يحتاجه فى غزوته من تموين وسلاح . كما عرف المستشفيات الميدانية لعلاج الجرحى والمرضى وكانت تتولاها النساء [٧] فى أرض المعركة . وعرف جيش محمد كلمة

١) أبو زيد شلبى فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٥٥ .

٢) كما حدث فى خيبر والطائف على سبيل المثال . خليفة بن خياط : تاريخ بن خياط ص ٦٦ .

٣) سيرة بن هشام جـ ٣ ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤

٤)كما حدث فى غزوة مؤته . خليفة بن خياط : تاريخ ابن خياط ص ٨٧ . سيرة ابن هشام : جـ ٣ ص ٤٣٥

٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ٤١١ ، أحداث سنة ٢ هـ .

٦)المصدر السابق ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ أحداث سنة ٢ هـ . سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٣٤ .

٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ٦١١ أحداث سنة ٦ هـ ، جـ ٣ ص ٧ أحداث سنة ٧ هـ .
سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٩ ، ٥٣ .

السر « شعار »[١] للتعرف والتجمع وكانت لهم رايات وألوية[٢] ذات لون متميز يلتقى الجيش عليها .

---

١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ٢٨ أحداث سنة ٨ هـ . سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٣ .

٢) خليفة بن خياط : تاريخ ابن خياط ص ٦٢ ، ٦٧ ، ٨٧ . الطبرى : جـ ٣ ص ١١ ، ١٢ ، ١٣ فى ذكر غزوة خيبر ، ص ٣٩ ، ٤٠ فى ذكر غزوة مؤته . سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٥١ .

أولا - المصادر الأصلية

القرآن الكريم

ابن الأثير : ت ٦٣٠ هـ على بن أبى الكرم محمد

ـ الكامل فى التاريخ . الطبعة الثالثة ١٩٨٠ دار الكتاب بيروت .

ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة . المكتبة الإسلامية . القاهرة .

البخارى : ت ٢٥٦ هـ الإمام أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى .

ـ الجامع الصحيح .

البدرالعينى : ت ٨٥٥ هـ الأمام بدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد العينى .

ـ عمدة القارى شرح صحيح البخارى . طبعة دار إحياء التراث العربى بيروت .

الجصاص : ت ٣٧٠ هـ أبو بكر أحمد بن على الرازى .

ـ أحكام القرآن . طبعة دار الكتاب العربى بيروت .

ـ خليفة بن خياط : ت ٢٤٠ - ٢٤٦ هـ العصفرى - تاريخ ابن خياط .

الطبعة الثانية ١٩٧٧ .

الدينورى : ت ٢٨٢ هـ أحمد بن داود أبو حنيفة .

ـ الأخبار الطوال . تحقيق عبد المنعم عامر . وزارة الثقافة والإرشاد القومى .

الأزرقى : أبو الوليد محمد بن عبدالله .

ـ أخبار مكة . الطبعة الثانية ١٩٦٥ مكة المكرمة .

السيوطى : ت ٩١١ هـ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر .

ـ تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك طبعة دار الفكر .

ـ الخصائص الكبرى . الطبعة الأولى . بيروت .

السمهودى : ت ٩١١ هـ نور الدين على بن أحمد .

ـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى . تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد .

ابن سلام : ت ٢٢٤ هـ أبو عبيد القاسم .

ـ الأموال . تحقيق محمد خليل هراس الطبعة الثانية .

الشوكانى : ت ١٢٥٥ هـ الإمام محمد بن على بن محمد .

ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار .

الشافعى: ت ٢٠٤ هـ الإمام محمد بن إدريس .

ـ الأم .

الطبرى : ت ٣١٠ هـ محمد بن جرير .

ـ تاريخ الأمم والملوك . الطبعة الثانية تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

ابن عبد ربه : ت ٣٢٧ هـ أبو عمر أحمد بن محمد .

ـ العقد الفريد . الطبعة الثالثة . القاهرة ١٩٦٥ .

ابن العربى : ت ٥٤٣ هـ أبو بكر محمد بن عبدالله .

ـ أحكام القرآن ، طبعة دار المعرفة . بيروت .

ابن العماد الحنبلى : ت ١٠٨٩ أبى الفلاح عبد الحى بن العماد .

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . طبعة دار المسيرة . بيروت

عمر بن فهد : ت ٨٨٥ هـ محمد بن محمد .

ـ إتحاف الورى بأخبار أم القرى ١٩٨٣ .

ابن قتيبة : ت ٢٧٦ هـ أبو محمد عبدالله بن مسلم .

ـ المعارف الطبعة الثانية . القاهرة .

ـ عيون الأخبار . طبعة ١٩٢٥ . القاهرة .

ابن القيم : ت ٧٥١ هـ الشيخ شمس الدين أبى عبدالله محمد بن أبى بكر .

ـ أحكام أهل الذمة . تحقيق صبحى الصالح .

ـ زاد المعاد . الطبعة الاولى .

ابن كثير : ت ٧٧٤ هـ عماد الدين أبى الفدا إسماعيل .

ـ تفسير القرآن العظيم .

ـ البداية والنهاية . الطبعة الثانية ١٩٧٧ بيروت .

الكتانى: الشيخ عبدالحى .

ـ التراتيب الإدارية . دار إحياء التراث العربى . بيروت .

مالك : ت ١٧٩ هـ الإمام أبو عبدالله مالك بن أنس الأصبحى .

ـ الموطأ .

المقريزى: ت ٨٤٥ هـ تقى الدين أحمد بن على .

ـ إمتاع الأسماع . بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع . القاهرة ١٩٤١.

الماوردى : ت ٤٥٠ هـ أبو الحسن على بن محمد بن حبيب .

ـ الأحكام السلطانية . طبعة بيروت ١٩٧٨م .

مسلم : ت ٢٦١ هـ الإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى .

ـ الجامع الصحيح بشرح النووى . طبعة ١٩٨١ م .

النووى الدمشقى: ت ٦٧٦ الإمام أبى زكريا يحيى بن شرف .

ـ رياض الصالحين الطبعة الثانية . دمشق .

ابن هشام : ت ٣١٨ هـ أبو محمد عبد الملك .

ـ السيرة . تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد .

الواحدى: ت ٤٦٨ هـ أبو الحسن على بن أحمد النيسابورى .

ـ أسباب النزول . طبعة بيروت .

اليعقوبى: ت ٢٨٢ هـ أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر .

ـ تاريخ اليعقوبى .

أبو يوسف : ت ١٨٢ هـ .

ـ الخراج . تحقيق محمد إبراهيم البنا - القاهرة .

محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

ثانيا المراجع الحديثة

أرنولد : سير توماس . و .

ـ الدعوة إلى الإسلام . ترجمة د . حسن إبراهيم وآخرين .

أحمد إبراهيم الشريف : الدكتور

ـ مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ١٩٦٥ .

جولد تسيهر : إجناس .

ـ العقيدة والشريعة فى الإسلام . ترجمة د . محمد يوسف موسى وآخرين

حسن ابراهيم حسن : الدكتور .

ـ تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والإجتماعى . الطبعة السابعة .

الخضرى: الشيخ محمد .

ـ تاريخ التشريع الإسلامى . طبعة ١٩٦٠ القاهرة .

الخربوطلى : الدكتور على حسنى .

ـ الإسلام دين عالمى إنسانى .١٩٦٦ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

رءوف شلبى : الدكتور .

ـ الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى . الطبعة الثالثة دار القلم الكويت .

ـ الدعوة الإسلامية فى عهدها المدنى . الطبعة الأولى دار القلم الكويت .

أبو زهرة : الإمام محمد .

ـ العلاقات الدولية فى الإسلام .

سيد قطب : فى ظلال القرآن الطبعة الثالثة .

صبحى الصالح: الدكتور .

ـ النظم الإسلامية . دار العلم للملايين بيروت .

الصابونى: الشيخ محمد على .

ـ صفوة التفاسير . طبعة بيروت ١٩٨٠ م .

عبد الوهاب خلاف : الشيخ .

ـ خلاصة تاريخ التشريع الإسلامى . دار الأنصار بالقاهرة .

عبد الخالق النواوى : الدكتور .

ـ العلاقات الدولية والنظم القضائية في الشريعة الإسلامية . ١٩٧٤ بيروت .

عبدالله سراج الدين :

ـ سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الطبعة الثالثة حلب .

كرد على :

ـ الإدارة الإسلامية فى عز العرب ١٩٣٤ .

ـ الإسلام والحضارة العربية .

محمد رواس قلعة جى :

ـ موسوعة فقه عبدالله بن مسعود . مركز إحياء التراث الإسلامى . مكة المكرمة .

ـ موسوعة فقة عثمان بن عفان . مركز إحياء التراث الإسلامى . مكة المكرمة .

محمد مختار باشا : اللواء .

ـ التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية الطبعة الأولى .

محمود شاكر :

ـ التاريخ الإسلامى . الطبعة الثانية ١٩٨٢ .

مصطفى عبدالواحد : الدكتور .

ـ المجتمع الإسلامى الطبعة الثالثة ١٩٨٤.

الميدانى: الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة .

ـ أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها . الطبعة الأولى .

نادية حسنى : الدكتورة .

ـ الطائف فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام . دار الشروق جده ١٩٨١ .

الندوى : ـ أبو الحسن على الحسنى .

ـ السيرة النبوية . الطبعة الثانية .